في ٢٥ ايلول لولا نوء عظيم قلب البحر ظهرًا لبطن غرق بسببه سفينتان من الاسطول . وكانت سفينة النائب الملكي عتيقة متداعية الالواح وعليها الاب لينس فضايقتها الامواج حتى أيس الجميع من خلاصها وتمكن النائب ان يرسل الى البرّ ودعا اليسوعي الى مرافقته لينجو بنفسه فأبى تلاّ يهجر الجند في خطرهم فمنّ الله عليهم بالنجاة بنعمة خاصة نسبها الجميع الى قداسة الاب لينس وبركته

ثمّ هدأ البحر وأمخر الاسطول الى صقلية في ٥ تشرين الاوّل وارسى في مدينة تريباني حيث التفّ الجنود حول الاب لينس قبل وداعه وشكروهُ على عميم فضله نحوهم وطلبوا بركتهُ كبركة احد اوليا. الله وملائكته المنظورين . ثم بادر النائب جان دي ڤيغا وارسل الى الحبر الاعظم الرسالة الآتية في تاريخ ١٨ من الشهر :

ايُّها الاب الاقدس

انّ حضرة الاب الاستاذ لَيْنس الذي رافقنا باذن رئيسه في حربنا الافريقيّة المنتهية بالظفر قد اظهر طول مدّة هذه الرحلة غيرةً لا توصف وقام بكل ضروب الاعمال الخيريّة . ولكونهِ ذاهبًا الى رومية فقد كلّفتهُ بان ينوب عني بتقبيل أقدام قداستكم وبمفاوضتكم في بعض الشؤون الآئلة الى خدمته تعالى وخير حاميتنا في افريقية . فأملي انّ قداستكم تصدّقون على ملتمسي كما تسالم وقيام دعوتي في امر اليوبيل الذي اتى بأغزر الثمار من التقى والصلاح . فليحفظ الرب قداستكم سنين طويلة لتدبير الكنيسة الجامعة

فصار للاب لينس عند بلوغهِ الى رومية ابهج استقبال واثنى الحبر الاعظم على خدمهِ المتعدّدة للكنيسة واعادهُ الى المجمع التريدنتيني لينوب عنهُ بصفة لاهوتيّه كما كان سابقًا . وما لبث بعد قليل ان خلف القديس اغناطيوس في رئاسته العامّة على الرهبانيّة اليسوعيّة وتوفي في رومية سنة ١٥٦٥

سلطانٌ يسوعيّ : المولى محمّد العبّاس .

للمرحوم الاب لويس شرل اليسوعيّ

هو فصلٌ آخر من الكتاب السابق للاب شرل اليسوعيّ (ص ٩٧-١٠٧) . امّا السلطان المذكور فقد اشرنا اليهِ في المشرق (١٣ [١٩١٠] : ٥٤٩) في ردّنا على جريدة العرب

انَّ لله عجائب في تغيير قلوب الانام من شأنها مرارًا ان تحيّر الحكمة البشريّة . وقد لاحت عنايتهُ تعالى في ارتداد احد سلاطين مرّاكش فهداهُ بطرائق سرّيّة الى الدين النصرانيّ ثمّ ادخلهُ في حجر الرهبانيّة اليسوعيّة . وقد وقع ذلك في السنة ١٦٥٥ في شخص المولى محمّد العبّاس ابن وولي عهد سلطان فاس المولى عبد الملك(١

وُلد محمّد العبّاس سنة ١٦٣١ . وكانت امّهُ نصرانيّة اسبانيّة فنشأ الولد ذكيّ الفؤاد ثاقب العقل أعرب بعد زمن قليل عن مناقب جليلة وحُنكة في الآداب الحربيّة ثمّ اقترن بالزواج وولدلهُ ابن اسمهُ احمد وصار نائباً لعمهِ السلطان محمّد الشيخ المعروف بالاصغر (٢ الذي كان يستشيرهُ في كلّ امورهِ ويفضل رأيهُ على سواهُ في الحرب والسِلم . وقد ظهرت شهامتهُ وحسن مراسهِ في محاربة اثنين من قوّاد الدولة شقّا عصا الطاعة للسلطان فظفر بهما الواحد بعد الآخر وألجأهما الى الخضوع لمولاهما . وشكرًا لنعمتهِ تعالى على انتصارهِ في هاتين الحملتين عوّل على الحجّ الى مكّة ليفي بما فُرض من ذلك الواجب على كلّ مسلم غيور . وانمّا نعمة الله كانت تترقّبهُ في سفرتهِ هذهِ

خرج محمّد العبّاس من فاس بصحبة بعض الموالي وباشر سفرهُ متنكّرًا كاحد اعيان وطنهِ وأبحر اوّلًا الى تونس حيث استقبلهُ ملكها الباي بمزيد الاكرام لأنّهُ كان مخالفًا للسلطان . ثمّ ركب سفينة شراعيّة انكليزيّة ابحرت من تونس وذلك بمشورة الباي الذي وجدها مجهّزةً بادوات الحرب وناشرةً لواء دولةٍ مسالمة لجميع الدول النصرانيّة فظنّ انّ لا خوف عليها من عدوّ في طريقها

فما كادت السفينة تخوض البحر اذ أبصر بها اسطولُ فرسان مالطة فامروا رئيسها بالوقوف لتفتيشها رسميًّا وتهدّدوا بضربها ان لم يخنع الى الامر . فلم يَرَ بُدًّا من الخضوع فبعد التفتيش اوقفوا المولى العبّاس واخذوهُ اسيرًا الى مالطة

---

١) تولّى ابوهُ السلطان ابو مروان عبد الملك بن زيدان الملك على فاس سنة ١٠٣٧ه وقتلهُ اخوهُ

٢) هو ابو عبدالله محمّد الثالث الشيخ ابن زيدان سلطان فاس ملك بعد ان قُتل اخوهُ الوليد على مرّاكش في ١٥ رمضان ١٠٦٥ ه. الى السنة ١٠٦٦ وقيل ١٠٦٣ (١٦٣٥–١٦٥٦م) وكان الحقّ بالملك بعدهُ لابن اخيهِ محمّد العبّاس

فلمَّا وقع نظر رئيس الفرسان على الاسير عرف بوقته انهُ من اعيان وطنهِ بل استدلَّ من بعض الاوانح انهُ من قرابة سلطان مرَّاكش ومن ثمَّ طلب منهُ مبلغاً وافراً يندي بهِ ذنبهُ فبلغ الامر باي تونس فاسرع وجمع ٩٠،٠٠٠ ريال لفكّ إسارهِ

على انَّ ذلك لم يتمّ الَّا بعد ثمانية اشهر لقي الاسير في مدَّتها من حسن المعاملة والانس ما قرَّبهُ الى النصرانيَّة ودرَّس عقائدها ومعارضتها على دينهِ حتَّى قنع بصحَّتها ولم يشأ بعد افتدائهِ من الاسر ان يعود الى وطنهِ بل اعلن في ١٢ حزيران من السنة ١٦٥٦ انهُ يريد ان يتنصَّر . فامتحن الفرسانُ صدق نيَّتهِ وثباتهُ وزادوهُ معرفةً بالدين المسيحيّ مدَّة اربعين يوماً . ولمَّا وجدوهُ مصمِّماً على قصدهِ عيَّنوا لمعموديهِ آخر يوم من تشرين

فلمَّا كان موعد تنصُّرهِ اخذ لهُ كفيلًا امير فرسان مالطة الكرمندور بلتزار مَنديس واراد ان يسمّى باسمهِ مضيفاً اليهِ اسم لويولا لوقوع عيد القديس اغناطيوس دي لويولا منشئ الرهبانيَّة اليسوعيَّة في ذلك اليوم . ثمَّ تنزَّل عن حقّ الملك على فاس لابنهِ احمد (١) وعُرف منذ ذاك باسم بلتزار لويولا مندس

واوَّل ما فكَّر فيهِ بعد تنصُّرهِ ان يزهد بالدنيا ويعيش ناسكاً في بعض البراريّ كرهبان الصعيد ثمَّ اوحى اليهِ الله بان يخصّ نفسهُ لخدمة النفوس ولاسيَّما خلاص اهل وطنهِ فعزم لذلك على درس العلوم الدينيَّة . فقصد رومية العظمى وبعد مدَّة طلب الانضواء الى الرهبانيَّة اليسوعيَّة . لكنَّ الرؤساء قبل التلبية الى ملتمسهِ اوعزوا اليهِ بدرس اللغة اللاتينيَّة مدَّة ثلث سنين وارسلوا احد رهبانهم من مدينة مالقة الى فاس ليتَّخذ سرَّاً كلّ المعلومات عن المولى الشريف . فأدَّى بهِ بحثهُ الى صحَّة نسبهِ الى السلاطين وشهد على ذلك بعض تجَّار النصارى ورهبانهم في فاس مثبتين شهادتهم بالقسم مؤكدين انَّ بلتزار لويولا مندس هو حقيقة ابن سلطان فاس عبد الملك بن زيدان

فلم يبق لرؤساء الرهبانيَّة اليسوعيَّة شكٌّ في صدق الشريف المتنصِّر فقبلوهُ بين

---

(١) أنَّ الذي ملك بعد السلطان محمَّد الشيخ بن زيدان على فاس هو احمد الثاني ابو عبَّاس ابن عمّهِ من السنة ١٠٦٥ الى ١٠٦٩ هـ (١٦٥٥–١٦٥٨) لكنَّ اخوالهُ دامو الاستبداد بهِ ثمَّ قتلوهُ وبايعوا الامير عبد الكريم الشابي . وبأحمد هذا انقرضت دولة السعديين من آل زيدان في مرَّاكش .

رهبانهم وبعد امتحانه كطالب ثمّ انقطاعه الى درس اللاهوت النظري والادبي ساموهُ كاهناً . وكان في ذلك الوقت في لومانات (اي كورك) مدينتَيْ جنوة ونابولي وعلى السفن الراسية في مرافئ ايطالية عدّة اسرى حرب من المسلمين فوكلوا الى الاب بلتزار ان يرشدهم . فباشر بالعمل بغيرة وايثار عجيبين وتفانى بخدمة اولئك المنكوبين فربحهم لدين المسيح وصبغ منهم بمياه المعموديّة نيّفاً والفين . وارسل الى احد علماء فاس وطلبهُ الى جنوة وهناك اوضح لهُ صحّة الدين المسيحي بأدلة قاطعة دفعتهُ الى طلب التنصّر فارسلهُ الاب بلتزار الى فلورنسة حيث حظي بنعمة العماد

على انّ هذه الارتدادات اثارت على الاب مندس غضب بعض المسلمين المتعصّبين في جنوة فأقسم الواحد منهم بان يسقيهُ السمّ او يُفقدهُ عقلهُ . فقدّم لهُ طاقةً من الزهور كان غمسها في محلول مسموم وتلا عليها اقوالاً سحريّة . فوقف الاب على نيّتهِ وقال لهُ : اني عالمٌ بانك تريد ان تقتلني او تُفقدني الرشاد . وها انا استنشق هذه الزهور وروائحها السامّة ولكن على شرط ان تتنصّر ان لم اشعر بأذىً . ثم اخذها من يدهِ وشرع يستنشق بكل هدوء عبيرها ساعةً . فلمّا رأى ذلك الاثيم انّ الاب بلتزار لم يلحق بهِ ضرر من سمّهِ وسحرهِ خرّ على قدميهِ وطلب منهُ السماح عن فعلهِ وتنصّر بعد زمن قليل

ومع وفرة الاشغال التي كان الاب بلتزار مندس مرتبكاً بها في خدمة مواطنيهِ استصوب تأليف كتاب يبيّن فيهِ لاهل دينهِ صحّة التعاليم المسيحيّة ويفند مزاعمهم الباطلة في حقّهِ وكان ألّف قبل تنصّرهُ عدّة تآليف . ثمّ انشأ جمعيّة من وجوه مدينة جنوة ليقوموا في صوالح المتنصرين حديثاً

وبقي الاب المذكور يعلّمهم ويرشدهم ويؤدي لهم كلّ الخدم حتّى انتدبهُ رؤساؤهُ الى مهمّة اعظم واوسع نطاقاً . فتقدّم اليهِ الرؤساء في تموز من السنة ١٦٦٧ ان يستعدّ للسفر الى الهند ليبشر بالايمان المشركين من اهل تلك الجهات وكان اذ ذاك عمرهُ ٣٦ سنةً . وكان كبير القامة حسن البنية ناصع اللون جميل المنظر ذا عقل ثاقب راضي الطباع دمث الاخلاق كثير الانس واللطف . وكان ينبغي عليهِ ان يذهب اولاً الى مدينة لسبونة عاصمة البرتغال ليركب هناك البحر الى الاقطار الهنديّة فسافر من جنوة ورافقهُ احد الخدّام ليقوم بحاجاتهِ في هذا السفر الطويل الشاقّ

ويعتني بمرضه

لما وصل الى مدينة أرل حظي فيها بمشاهدة الامير الكومندور مندس الذي كان وقع في اسره واعتمد بوكالته وتسمّى باسمه فسُرّ الامير بنظر الاب اي سرور واعترف اليه بذنوبه اعترافاً عاماً والحّ عليه ان يأخذه معه الى الهند ليرافقه في رسالته

وخرج اهل بيزيه (Béziers) للاقائه فاستقبلوه برونق عظيم وكلّ تجلّة واكرام . ولقي هناك بعضاً من جالية الفرنسويين الذين سكنوا في فاس منهم احد المصوّرين كان رسم صورته في وطنه ومنهم ايضاً احد الرهبان الدومنيكان . وكان اهل المدينة يتقاطرون الى منزله ليشاهدوه ويسمعوا حديثه . وزاره رئيس الآباء الدومنيكان مع سبعة من رهبانه وخطب مثنياً على فضائله وهو لا يناديه الّا باسم «جلالة السلطان» وكذلك اتى ليزوره الرهبان الاوغسطينيّون والفرنسيسيّون فتقدّموا له فرائض الاكرام . ومثلهم فعل اعيان البلد واميرا فرسان مالطة دي كَستِلمانه ودي كالو (de Castelmanet et de Calaux) اللذان كانا تمّما بمراجعته في مالطة اذ كان اسيراً وكانوا جميعاً يجلّونه ويوقّرونه . وتوفق احد المصوّرين البارعين الى رسم صورته على غير علمه . وهذه الصورة اليوم في بيت أُسرة سُون (Saune) الشريفة

وهكذا ايضاً خفّ لاستقباله اهل طولوز بغاية الأبّهة . ودعاه رئيس الآباء اليسوعيين الى اقامة قدّاس صادح في يوم عيد القديس يعقوب الرسول حضره كافّة الرهبان وكثيرون من اشراف البلد فتناولوا القربان من يده . وفي الغد دعاه رئيس اساقفة المدينة الى مائدته وزاره الحاكم واخصّ الاعيان . وطلب اليه السير دي سان پاپول احد اماثل البلد مع فرسان مالطة ان يقيم الذبيحة المقدّسة في معابد الجمعيّات الرهبانيّة . وكان الاب يجيب الى ملتمس الجميع بكل سذاجة ولطف اجتذب بهما قلوب العموم . وكان الناس يرون في هيبته ورزانته صورة العظمة الشرقيّة

على انّ اتعاب هذا السفر الطويل الذي تجشّمه في ابّان القيظ أثّرت في صحّته تأثيراً سيئاً . فلمّا وصل الى مدريد اهتزّ البلد طرباً لوصوله لكنّه بعد يومين اضطرّ الى ملازمة الفراش لحمّى شديدة أضنَتْه ونهكته . فدُعي اربعة من اشهر الاطبّاء لمعالجته فلم يألوا جهداً في خدمته لكنهم تحقّقوا بعد قليل انّ مرضه عياء لا شفاء له . فعرف الاب حاله واستعدّ لآخرته بكل تقىً . وقد اسعده الحظ قبل موته ان

يربح نفساً ضالّة من مواطنيهِ المهاجرين الى اسبانية

وذلك انَّ احد اطبّائهِ كان في خدمتهِ شابٌّ مسلم عمرهُ سبع عشرة سنة واصلهُ من مملكة فاس . وكان الطبيب سعى في هدايتهِ الى النصرانيَّة فخاب سعيهُ . فذكرهُ للاب بلتزار وهو على وشك النزاع فقال لهُ المريض : هلمَّ بهِ اليَّ . فلمَّا دخل عليهِ استقبلهُ بكل وداد وبشغرٍ باسم وكلَّمهُ بالعربيَّة بلطفٍ وبغاية الانعطاف . وكان الحضور لا يدركون معنى كلامهِ الَّا انَّهم بعد ساعة رأوا ذلك الشاب يذرف الدموع السخينة ويقبّل الصليب الذي كان في يد المريض ثمَّ طلب العماد وهكذا ربح الاب مندس تلك النفس قبل وفاتهِ للدين المستقيم . ثمَّ حاول الاب ان يصلّي الى خالقهِ صلاته الاخيرة قبل ان يجود بنفسهِ فلفظ صارخاً مع سمعان الشيخ : « اطلق يا ربّ عبدك بسلام » فاتَّها حتَّى اسلم روحهُ لبارئهِ وذلك في ١٥ ايلول سنة ١٦٦٧

فلمَّا شاع الخبر في المدينة عمَّ الاسف اهلها لهذا المصاب الاليم . وامرت ملكة اسبانية التي كانت سبقت الجميع لمواجهتهِ عند وصولهِ بان يُحتفل بجنازتهِ احتفال الملوك . فحضر هذه الحفلة جمهور غفير يتقدّمهم كل ارباب الدولة فخطب فيهم احد الآباء اليسوعيين ووفّى المرحوم الكريم حقَّهُ من الثناء . وبهذه الميتة الصالحة مجّد الله ذاك العبد الامين الذي ائتمنهُ جلَّ وعلا . وكان الامل الوطيد انَّ رسالتهُ في انحاء الهند ستأتي عن يدهِ بالثمار الشهيَّة لخلاص اولئك المتسكعين في ظلام الموت فاكتفى الله بحسن نيَّة عبدهِ الذي كان يشتهي ان يهرق دمهُ في خدمتهم فاسرع الى جزائهِ في اخدار ملكوتهِ

وقد كتب ترجمة حياتهِ الاب اغناطيوس دي ڤير اليسوعي سنة ١٧١٤ . وجمع الاب دانيال برونالي عدَّة كتابات ومعلومات عن تاريخهِ في مجلَّدين . وصنَّف بعضهم روايةً في ارتدادهِ شخَّصوها مرارًا على المسارح